

من المأساة إلى القضية

رائد شرف الدين

ذكرى عاشوراء ٢٠١٣

قاعة الإمام زين العابدين (ع)

١٢ تشرين الثاني ٢٠١٣ | العباسية - لبنان

باسمه تعالى

السلام عليكم أيها الأحبة ورحمة الله وبركاته.

... وفي المرة الثالثة إذ يتيح لي الأخ الكبير الحاج أبو علي فرصة التواصل معكم في أعز المناسبات، تنمو الإلفة بيني وبين هذا المنبر؛ تنمو الإلفة مع مستمعيه. كأنما أستمّد من إصغانتكم طاقةً إضافية أوظفها في تعميق فهمي للمأثرة، وفي محاولة نشرها على مساحة قضايا المعاصرة وهمومنا المتنقلة بين يوم ويوم، ومن ساح إلى ساح.

وحرصاً مني أن يكون الحديث استمراراً لا تكراراً، قمتُ بمراجعة ما سبق وقدمته في هذا المجلس الكريم فتبين أن إشكاليات الأمس ما تزال ماثلة اليوم. ليس المقصود قضايا العدالة والحرية والكرامة؛ فهذه قضايا حسينية مستمرة ما استمر الإنسان. المقصود أمور عملية ملموسة كالشقاق الإسلامي، أو العودة بالحاضر إلى الماضي، أو الأسلوب البكائي على حساب العبرة في إحياء المجالس العاشورائية، وما شابه.

حمل الإمام الحسين لواء قضايا كونية وأزليّة، وكان مبدئياً ومنتخباً وأسطورياً في التصدي لها. وهو مثال عالمي قديماً وحديثاً. فنحن نقرأ لكاتب ألماني (كونسملان): "سببى الحسين رمزاً

للحرية والكرامة ورفض الطغيان"؛ ويُنَبِّئنا المهاتما غاندي الهندي بأنه تعلّم من الحسين "كيف يكون مظلوماً وينتصر"؛ ويعجب لأمّنا ماوتسي تونغ الصيني عندما قال "عندكم تجربة ثورية وإنسانية فذة قائدتها الحسين، وتأتون إلينا لتأخذوا التجارب!".

رغم ذلك، يبقى استشهاد الحسين وصحبه أمراً شيعياً. أولئك الذين يواظبون على إحياء السيرة الحسينية هم الشيعة حصراً؛ فهل يؤشر حصار الذكرى في الكنف الشيعي إلى أمر معين؟! دعونا نتذكر من هم الشيعة؟ أو ما هو التشيع؟ لنَدع الإمام الصدر يساعداً على تلمس الإجابة. ونعثر على معظم أجزائها في مقالة له منشورة في مجلة العرفان، المجلد ٧٣.

هو يستشهد بعدة مواقف ليثبت أنّ علياً وشيعته كانوا في صميم المجتمع الإسلامي، بدلالة وقوفهم مع الخلفاء بالتأييد والنصح والمدافعة حرصاً على أمّة الإسلام وصوناً للوحدة. ثمّ يذكرنا كيف تصدّى الإمامان الصادقان، محمد الباقر وجعفر الصادق(ع)، للتحديات الثقافية الخطيرة التي واجهت الإسلام في النصف الأول من القرن الثاني الهجري. فتعاليمهما تجاوزت الفقه لتشمل التوجيه العلمي في مختلف الحقول، والانفتاح على الثقافات مع حفظ الأصالة، علاوة على طريقة فهم القرآن بعقل ودراية.

ونكمل مع الإمام الصدر، فعلى الإنسان المسلم - بالمفهوم الشيعي- أن يسعى لبناء المجتمع الصالح من خلال إقامة حكم صالح، والإنسان مسؤول بمقدار وعيه وحسب إمكانياته "كلكم راع وكلكم مسؤول"، وعلى الحاكم أن يكون على درجة عالية من العدالة. وبتعبير آخر، الشيعي ملتزم بمصالح المسلمين وتمسك بالمبادئ والقيم العليا.

إلى الانتماء والوحدة، وإلى المسؤولية السياسية والحقوق، هناك مبدأ الانتظار للمهدي(عج) وهو يعكس أساس التهيؤ الدائم والأمل، أي القوة الدافعة للتغيير نحو الأفضل. بالنتيجة، يخلص الإمام الصدر إلى أنّ التشيع حركة لا مؤسسة، وإلى أنّ التشيع رفض للحاكم المنحرف ولو كان شيعياً.

ما تمّ اقتباسه من المقالة المذكورة يحتوي على الأساسي من المحاور المعاصرة: الشيعة ووحدة الأمة الإسلامية، الثقافة والاحتكاك بالمدينة والتكنولوجيا، المشاركة والحقوق المدنية والسياسية، الاجتهاد وحدوده، التغيير الاجتماعي والرؤية والحلم، الحكم الصالح ورفض الحاكم المنحرف. والمطالع لصحف الصباح في أيّ من عواصر العرب سيلحظ عناوينها الأولى مزدحمة بهذه المفردات- المعضلات. ألم تخرج الشوارع العربية رفضاً للتفرد بالحكم ومفاسده؟ أوليست أساليب الحياة وضروب الموضة ووسائل الاتصال الاجتماعي من قضايا الساعة ومن أدوات التغيير وموضوعاته؟ وماذا نقول عن حدود الشريعة كما يؤلّها الغلاة ويحاولون فرضها

على النساء والأطفال؟ ثم ما مآل الانقسام العامودي بين شيعة وسنة، والإمعان قتلاً وتفجيراً على هذه الخلفيّة؟

لن أتوسع في كلّ هذه الأسئلة من على هذا المنبر الكريم، على يقيني بأنّ حسيناً ما استشهد إلاّ ليحفزنا على التفكير في كلّ ما يجدر أن يتغيّر فينا ومن حولنا. ما كان الحسين ينتظر منا معروفاً عبر اللهج بإسمه وبأسماء من قضاوا معه. انتشرت المجالس الحسينية في كلّ الساحات والأحياء وفي العديد من المنازل، وبات الناس يقلّبون مزايا هذا المجلس على ذاك، على حساب الفحوى أو جوهر الموضوع المطروح وصلّته بالمعزى العميق للمأثرة الحسينية.

استطردّ في هذه الفقرة مستذكراً المقدس السيد محمد حسين فضل الله إذ يقول بأنّ "عاشوراء حركة في الوعي، لا حركة في الانفعال"، ثم أختمها بالتنويه بأنّ حسيناً ما كان ليستشهد حتى نطأطأ رؤوسنا، بل هو أخذ ذاك القرار الكبير حتى تبقى أعناقنا شامخة بالفخر والعزم؛ وغيرها وغيرها من نبضات الكرامة والعزّة التي بثّها فينا(ع) ومن بعده الحوراء زينب(ع) في روايي الأمكنة ومكامن النفوس. هو الموقف الذي تخضّب بقوة كفته وتكفيه ليتردّد عبر العصور.

أكاد أجزم بأنّ التخفّف من توصيف الأجساد المضرجة سيساعد على استحضار المزيد من القيم والمعاني وتوصيلها إلى المستمعين، وفي هذا انتقال من المأساة إلى القضية؛ وأكاد أجزم مع نزار حيدر بضرورة أن نجعل عاشوراء مستقبلاً يأتينا من الماضي مروراً بحاضرنا بدل أن نعود بحاضرنا إلى الماضي. بهذا نصنع جسر العبور من التقليد إلى التجديد.

بقليل، أو كثير، من التفكير والتأمل، سنلاحظ أن هذه الأمور ليست مجرد شكليّات. إنّها الإشكاليات بعينها. كيف؟

التقى المسلمون عبر العصور على شخصية الحسين، بكل ما يجدر بها من احترام وإجلال. وتمثّل عاشوراء في ندائها الإنساني الإسلامي الوحدة الإسلامية (فضل الله)، في حين أن أسلوب إحياء المجالس وشكليّاتها أخذت تثير أحقاداً تاريخية سنية ضدّ الشيعة، وللأسف يرى فيها البعض مناسبة لإثارة الأحقاد الشيعية ضدّ السنة.

- أن يفلح الخطاب العاشورائي في تعبئة جماهير الشيعة بحبّ أهل البيت أمر، ومضمون هذا الحب وتجليّاته في الواقع والمجتمع والممارسة أمر آخر إنّّه حب ضبابي (فضل الله) تائه في فلك الانفعال يتشتت بتشتت الضباب، ولا يمتّ إلى منطقة الوعي بصلة؛

- تفلح المجهودات الدعائية في جذب الناس إلى هذا المجلس أو ذاك، ويمعن الخطباء في إثارة عصبية الحضور طمعاً في جذبه إلى ذات المجلس مثني وثلاث. إثارة عصبية هذا الحي تستحث العصبية المجاورة، وهكذا دواليك.

- مضى البعض بعيداً بعيداً في الشطط: تشطيب الرؤوس وجلد الظهر وتعصيب الأطفال واصطحاب الرضع إلى المسيرات .. جميعها مظاهر منافية لمبدأ الرحمة وحفظ النفس وسلامة السليقة، وهي مستفزة، بل منفرة لكل آخر. ولا تتورع الفضائيات عن بثها في كل أثر. هي ممارسات ألحقت بقضية الحسين أضراراً تفوق كل تقدير، بل أخرجتها من دائرة الاهتمام الإنساني والفكري والتغييري. وبدل أن نحرك عاشوراء في الضمير الإنساني، أغلقناه دونها. بدل أن نذهب بالسيرة الحسينية إلى الآخرين، أصبح لزاماً علينا أن نسور مجالسنا.

التشيع حركة اجتهاد للفكر نحو التجدد، وصرخة "لا" بوجه كل مستبد طاغية -والزمن زمن ثورات وزمن لاءات في كل اتجاه-، والتشيع ريادة في الانتماء إلى مجتمع وإلى أمّة وإلى إنسانية وإلى كون. الحسين ثار محتسباً إذكاء جذوة الإيمان والعدل والحق والأمل بل والفرح.

هي شعلة تحتاج إلى فضاء رحب منه تتنفس وفيه تضيء.

حذارٍ أن نخنقها!

والسلام.